الدكتور: عبد الخليل قريان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة–

الملتقى الوطني 26 حول"التراث الثقافي المادي واللامادي في الجزائر عبر العصور ومنطقة قالمة والشرق الجزائري نموذجا" من تنظيم جمعية التاريخ والمعالم الأثرية لولاية قالمة يومي 22و23 شوال 1444هـ الموافق لـ 13و14 ماي 2023م بقاعة المحاضرات لمديرية الثقافة والفنون قالمة.

عنوان المداخلة:

التراث اللامادي ومحاذير توظيفه في كتابة التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف الانبياء والمرسلين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بداية أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى كل القائمين على جمعية التاريخ والمعالم الأثرية لولاية قالمة وعلى رأسها الاستاذ الدكتور اسماعيل سامعي على إتاحته لنا هذه الفرصة للمشاركة في فعاليات هذا الملتقى العلمي، وأحيي من خلالكم كل السادة الاساتذة الافاضل المشاركين والمدعويين وكل الحضور الكريم.

عنوان مداخلتي:

التراث اللامادي ومحاذير توظيفه في كتابة التاريخ

إن التراث اللامادي هو كل شكل من أشكال الثقافة الشفوية التي لا تحمل، ولا تدون، ولا يمكن حفظها ماديا، ولكنها تبقى سارية في المجتمع شفهيا، وتخضع للتحولات الاجتماعية المختلفة، اجتهادا وإضافة وتعديلا، ويشملها عنوان التراث الشعبي أو التقاليد الشعبية من الفنون الاستعراضية، والطقوس، وأنواع المناسبات الاحتفالية، والمعارف والممارسات المتعلقة بالكون والطبيعة، والمعارف والمهارات المتعلقة بالصناعات الحرفية التقليدية المختلفة. .. وتنمو وتزدهر او تتقهقر تبعا للتغيرات التي تحدث في المجتمع،

إن التراث اللامادي أو هذه الثقافة الشفوية او الممارسات والتعابير تعتبر عنصرا من أهم عناصر هوية المجتمع وخصوصيته. لأنها تشكل خلاصة التفاعل بين المكونات العقلية

والنفسية للمجتمع، ونظرتِه للكون والحياة، ويأتي الدين والمعتقد وما يفرزه من تصورات وشعور وأحاسيس وسلوكيات على رأس الفاعلين في تحديد نمط التراث، وجل التحولات التي تطرأ على هذا التراث غير المادي ترتبط شعوريا ونفسيا بالتغيرات الإيديولوجية والنفسية.

ولهذا التراث اللامادي فوائدٌ كبيرة، أهمها توطيد الشعور بالوحدة والانتماء لهذا الفضاء الاجتماعي الخاص، وتمتين التماسك والترابط بين أفراده وفئاته.

وفي خضم تدفق العلوم وتطورها المتسارع، ، وسهولة الوصول والحصول على المعارف، والضغط العلمي المتنامي والمفروض بقوة الحاجة والاستعمال، وتيسير التواصل بين مختلف الشعوب، وازدياد منسوب الهجرات القسرية او الحاجية، كل ذلك ساهم في تقليص فرص الحفاظ على هذه الثقافة والتراث اللامادي وعلى استبقاء خصوصيتها، وباتت معرضة لخطر الزوال والاندثار او التغيير والتبديل او إحلال الثقافة الغالبة محل الثقافات المنهزمة، او التي تشعر بالهزيمة النفسية.

إن أهم ما يمكِّن للثقافة اللامادية من البقاء والصمود والتجذر متعلق بمجتمعها، إن المجتمع هو الذي يُمَكِّن لهذه الثقافة اللامادية ارتباطا واعتزازا وتقديرا وتدعيما لها وممارستها والمحافظة عليها في مناسباتها، وترسيخها، وترويجها، ونقلها للأجيال اللاحقة، ويحاول ان يطور أو يُكيِّف طرق المحافظة عليها بأساليب تتوافق مع العصر.

-إن ما يمكن أن نستخلصه من معالم في التراث اللامادي ما يلي:

- انه تراث مرتبط بالسلوك الاجتماعي الذي يعتبر خلاصة وافية لثقافة المجتمع في إطاره العام.

-إنه تراث يشبه الكائن الحي من حيث النمو والتعرض والتأثر بمختلف التقلبات، والتأقلم والتغيير، والاندثار.

- يمكن التعويل عليه في إطار من الزمن المحدود والقريب لاستعادة الثقة الذاتية والشخصية الاجتماعية.

-ما هي مستويات النظر إلى التراث اللامادي؟

يمكننا ان نعين ثلاث مستويات زمنية أساسية للتراث اللامادي:

-التراث اللامادي المعاصر

-التراث اللامادي البعيد نسبيا لا يتعدي فترة 50 إلى 80 سنة

-التراث الضارب في القدم

فبالنسبة للأول(**التراث اللامادي المعاصر**) يمكننا رصده، وتوثيقه، والكتابة عنه واعتباره جزءا من تاريخية المنطقة او المجتمع الصغير او الكبير، ويصبح مستندا تاريخيا.

أما بالنسبة للبعيد نسبيا (**التراث اللامادي البعيد نسبيا لا يتعدي فترة 50 إلى 80 سنة**) فيحتاج إلى عمليات من البحث والاستقصاء حتى نتمكن من رصده هو الاخر من خلال ماتبقى من شُخُوصه وأدواته، وتوظيف مناهج علمية في التأكد من ذلك بالاستقصاء والاستقراء والمقارنة والقرينة والاستنتاج، وغيرها مما تُتيحه مناهج البحث التاريخي، حتى نتمكن من تحديد صورة هذا التراث في فترة معينة، وما هي التحولات التي طرأت عليه بعد ذلك، والعوامل التي ساهمت في تغذية هذه التحولات، وعناصر معادلة التفاعل التي أنتجت هذا التراث، أو كانت وراء تحولاته.

-أما فيما يتعلق **بالتراث الضارب في القدم** فإنه يحتاج إلى بحث كبير محفوف بالمخاطر التي قد تجعل منه لعبة في أيدي المتربصين. وإذا أمكننا البحث فيه فينبغي ألا يعتمد في كتابة تاريخ منطقة او مجتمع لأنه سيتحول إلى حلبة صراع.

-وفي هذا الاطار يمكننا التأكيد أن التراث اللامادي يمكن توظيفه في جانبين اساسيين:

الجانب الأول: جانب ترميمي للتاريخ يستأنس به في المسائل التاريخية، ولا يمكن بحال ان يكون بديلا عن التراث المادي كشاهد اساسي في كتابة التاريخ.

الجانب الثاني: جانب شعوري وجداني يعمل على توحيد الشعور الجمعي والانتماء الاجتماعي. وهذا الجانب كثيرا ما يوظف في أطر لا علاقة لها بعلم التاريخ .

-اهم المحاذير: **محاذير توظيف التراث اللامادي في كتابة التاريخ**

السؤال الذي يجب ان يطرح هو:

هل يمكننا التأريخ للتراث اللامادي الضارب في الزمن ؟؟

-الجواب على هذا السؤال هو الذي يحدد المحاذير:

-إذا علمنا ان التراث اللامادي لا يترك خلفه أثرا ماديا يمكن التعويل عليه

-كما أنه خاضع للتغيير والتبديل والتحويل والتكيف مع كل الاوضاع الاجتماعية وتطوراتها، وحسب كل منطقة صغيرة كانت او كبيرة، ويمكن لمنطقة واحدة أن تختلف التعابير فيها من قرية إلى قرية، وخاصة بالنسبة للمناطق التي لا يوجد بينها تواصل أو تواصلها ضعيف.

-كما انه يتأثر بالتطورات والتغيرات الثقافية والعلمية والعقلية والنفسية والايديولوجية للمجتمع.

-ومن ثم فإن **الهلامية أو الشبحية** التي يتميز بها التراث الثقافي اللامادي الضارب في القدم لا تُمكِّنُنا من رصده والحصول على صورته الحقيقية، وكل ما يمكن ان نصل إليه هو محاولة رسم صورة له تتوافق مع أمزجتنا الخاصة، وقد ينتج عنه مجموعة من الصور المتناقضة في كثير من الأحيان.

- ثمة أطراف تسعى للتأريخ بالتراث اللامادي أو توظيفه في التاريخ لمنطقة أو بقعة جغرافية معينة، وتعتمد على التراث الضارب في القدم لأنه الوحيد الذي يمكن التدخُّلُ فيه وتوجيهُه، **وعادة ما تلجأ إليه بعض الشعوب او الاقليات المضطهدة أو التي تشعر بالاضطهاد، في محاولة للبحث عن نفسها في التراث الغابر، وإعادة بعث الحياة فيها من خلاله،** وعادة ما تلجأ هذه الفئات الى ذلك لأنها تفتقد الدليل أو الشاهد المادي(إما ان الشاهد غير موجود أو تمت تصفيته) الذي يضمن تاريخها، ويوفر لها قيمتها الحضارية.

ومن أهم المحاذير:

بما أن هذا التراث له صفة **الهلامية** او **الشبحية** فإنه قد يتحول من مجرد تراث شعبي سَكَبَتْ فيه القرون كل تغيراتها وإفرازاتها إلى ما يشبه المادة التاريخية المقدسة، ويتم توظيفه لمشاريع إثنية أو ايديولوجية، وإعادة توجيهه بما يتوافق مع طروحات أصحابه.

- سوف يُخضع التراث اللامادي للميول الذاتية والمزاجية بما يتوافق ورؤية اصحاب المشاريع، ويصبح أداة منتجة للتاريخ صانعة له حسب الطلب.

-كثيرا ما يتعرض التراث اللامادي إلى التغيير والتبديل والتزوير والتحريف في الشكل والأسلوب والتعابير والابعاد والمعاني، حتى يتوافق مع الرؤية المستهدفة من اصحاب المشاريع الايديولوجية والإثنية ويتماشى مع تصوراتهم وتطلعاتهم.

-يصبح التراث اللامادي ألعوبة بين يدي مختلف الايديولوجيات والإثنيات وأصحاب المشاريع المختلفة، تأخذ منه ما تحتاج وتبقيه، وتترك منه ما لايتوافق مع رؤيتها أو تعدمه.

–قد يتحول في بعض الأحيان إلى صراع وتنافس غير علمي يؤسس للعداوات بين الشعوب، ويوظف في مختلف الصراعات، ويستجلب معه أدوات التفكك الاجتماعي الداخلي، ومعاول الصراع الخارجي بين الدول. وتوظيفه في الصراعات الطائفية.

– إصابة الصيرورة التاريخية في عمقها بإفساد حلقات اساسية منها بما يخضع له التاريخ من البتر او التزوير والتغيير والتبديل والتحريف. وما ينجر عن ذلك من فقدان معيار السننية التاريخية التي يستفيد منها في حاضر البشرية ومستقبلها.

في الختام يجب النظر إلى التراث اللامادي على أنه جزء من الحياة الاجتماعية الثقافية المتحركة للإنسان في فضاء جغرافي وزمني معين. ولكل عصر تراثه الذي يصنعه، وعوض النظر إلى التراث اللامادي بعين القداسة على الانسان ان يفَعِّل تراثه ويصنعه بذاته.